

تكريس الثورة التحريرية لمفهوم الأمة الجزائرية

/1 معماش النوي

جامعة سطيف

Résumé:

Cet article vise à définir la nation algérienne moderne qui n'a pu voir le jour qu'après beaucoup d'efforts déployés par l'élite. Cette thèse avait été totalement refusée par le colonialisme français parce qu'elles opposa à son régime politique mis en place.

Devant ce refus, les Algériens comme l'émir Khaled, Messali Hadj, Benbadis et tant d'autres ont pu apporter des précisions et des éclaircissements à la notion de la Nation Algérienne, qui devint par la suite une plate forme solide au mouvement national.

Cette acquis permis au mouvement national de se déclencher une révolution capable de négocier à égal a égal avec les autorités Française et d'arracher finalement l'indépendance.

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى التعريف بالأمة الجزائرية الحديثة التي لم تولد إلا بعد مخاض عسير بسبب الاستعمار الفرنسي وعنجهيته، حيث فرض عليها حصارا في الفكر والنضال، فلم تولد إلا بتتوير من الجزائريين أمثال الأمير خالد ومصالي الحاج وابن باديس وبوضوح القيمة النبيلة لها، اندفع الجزائريون يشربون من معينها ويعملون على تحقيقها.

ومنذ أول نوفمبر ابتذل الجزائريون النفس والنفيس، فقارعوا بها الأمة الفرنسية وافتكوا استقلال هذه الأمة الجزائرية الحديثة.

1. المقدمة:

في الوقت الذي وصلت فيه أوروبا إلى تحرير العقل وبناء دول حديثة بمفاهيم ومبادئ صحيحة لا تزول بزوال الرجال، كانت الأيالة الجزائرية تعتمد على القرصنة، وفرض مزيد من الضرائب على السكان الجزائريين.

ولما وطأت أقدام فرنسا عاصمة الجزائر لم تجد قوة تضاهيها لا عسكريا ولا سياسيا، فاحتلتها، ورغم أن التوسع الاستعماري دام طويلا حيث واجه مقاومة اعتمدت على العاطفة الدينية والزعامات القبلية، ورغم أنها كانت عنيفة إلا أنها باءت بالفشل التام في دحر قوة عاتية، ومنه يمكن للمرء أن يطرح مجموعة من الأسئلة منها، هل الجزائر كانت في يوم من الأيام تمثل أمة؟ وهل كان لمفهوم أمة وزن في توحيدها أو استقلالها؟، وبم استعان الجزائريون في ليلهم الطويل لبلوغ هذا المعلم الحيوي؟، وأخيرا لما بلغوه هل ساعدهم على تحقيق آمالهم، وللإجابة عن هذه الأسئلة، كان لزاما علينا أن نتعرض بالدراسة للمحاور التالية:

1. مفهوم الأمة والقومية:

لقد نشأت القوميات الأوروبية في أول أمرها كرد فعل شعبي مع بداية القرن 18م ضد الطبقات الأرستقراطية الحاكمة وضد القبضة الحديدية التي كانت تمسك مصائر الشعوب من قبل الكنيسة باسم السلطة السماوية.

وجاءت ثورة 1789م الفرنسية التي نادى بشعار «يحي الوطن» بدلا من الشعار القديم «يحي الملك»، ومن ثم أصبح من حق الوطن أن يرث كل الصلاحيات والامتيازات التي كان يتمتع بها الملك، وفيما بعد أدى ذلك إلى ظاهرة جديدة وهي انتقال العدوات بين الشعوب لا بين الملوك، وكان غزو نابليون لألمانيا العامل التاريخي الأكبر في نشوء القوميات بأوروبا، ذلك لأن الفيلسوف الألماني "فيخته"

الذي حلل شعلة العاطفة الوطنية، قد نادى لمجابهة الاحتلال الفرنسي بوحدة كل "الألمانيات".

واتخذت الوطنية أو القومية طيلة القرنين 19 و 20 ألوانا مختلفة في أوروبا، وأصبحت كل النظريات السياسية والاقتصادية والثقافية تكتسي الطابع الوطني¹، كما أصبحت هذه القومية أو الوطنية من أهم النزعات الاجتماعية التي تربط الفرد البشري بالجماعات وتجعله يحبها ويفتخر بها ويعمل من أجلها ويضحي في سبيلها. معلوما أن الوطنية هي حب الوطن والشعور بارتباط باطني نحوه، أما القومية فهي حب الأمة والشعور بارتباط باطني نحوها، فالوطنية هي ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن، والقومية هي ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم الأمة.

قد يتقارب مفهوما الوطنية والقومية تقاربا كبيرا، وللمفهومين علاقة بمفهوم ثالث وهو مفهوم الدولة التي تعني «جماعة من البشر يعيشون في أرض معينة مشتركة مؤلفين هيئة سياسية مستقلة ذات سيادة» إذن فالدولة ترتبط بالوطن وبالأمة، ولكن هذا الارتباط لا يكون على نمط واحد في كل الدول والأمم وفي جميع أدوار التاريخ. قد تكون الأمة محرومة من دولة خاصة بها وتابعة لدولة أجنبية، وفي هذه الحالة تفرض الدولة الحاكمة على جميع أفراد الأمة الخاضعة لها «وطنية عامة واسعة النطاق» وتطلب منهم أن يرتبطوا بوطنيتها وأن يخدموها بدافع هذه الوطنية، وهي الإجراءات التي اتبعتها فرنسا حيال الجزائر وسكانها بعد أن قررت إلحاقها بها بتاريخ 22 جويلية 1834م، ثم تكريس هذه الوطنية العامة الواسعة- بالمادة الدستورية من قانون 4 نوفمبر 1848 في عهد الجمهورية الفرنسية الثانية التي نصت على: «أن التراب الجزائري والمستعمرات هي أقاليم فرنسية»² فحسب القواعد العامة للقانون الدولي العام، فالاحتلال أو الاستيلاء العسكري لا يكفي لتجريد الشعب المغلوب من

قوميته، بل يستوجب أخذ التدابير اللازمة لإلحاقه لبلد الشعب الغالب³. في هذه الحالة فالقومية «الجزائرية» تعارض هذه الوطنية العامة الواسعة «الفرنسية» أشد المعارضة وتولد في نفوس الأفراد «الجزائريين» نزوعا إلى الاستقلال عن الدولة الحاكمة «الفرنسية» ويسعون إلى تكوين دولة خاصة بهم⁴، وقد تمثل ذلك في مختلف المقاومات الجزائرية للاحتلال الفرنسي إبان القرن التاسع عشر.

2. مرحلة اللاوعي بالقومية عند الجزائريين:

مما تقدم يمكن لنا أن نتساءل: هل كان للجزائريين -قبل الاحتلال- شعور قومي بالمفهوم الحديث؟ هل سكان الجزائر أو الأيالة الجزائرية كانوا يؤلفون أمة جزائرية؟ ثم ما هو الوضع السياسي للجزائريين إبان الاحتلال الفرنسي؟ وهل نزع الجزائريون لتكوين دولة خاصة بهم؟.

في الحقيقة أن المتمعن في تاريخ الجزائر العثماني من 1520 إلى 1830 يلمس عبر مراحل هذا الحكم، أن السيادة الجزائرية بالنسبة للسلطات الجزائرية كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية ولو اسمياً، أما بالنسبة للمجتمع الجزائري فكان يرى في السلطان العثماني أنه السلطة الروحية وفي نفس الوقت خليفة لجميع المسلمين، ومن جهة أخرى فإن الجزائريين أصحاب الأرض كانوا بعيدين عن الحكم وأنه رغم مقتهم للحكم العثماني المتسلط، إلا أنهم لم يقوموا بثورة عامة تمكنهم من التعبير عن الشعور الوطني، وباختصار فإن سكان الجزائر قبل الاحتلال لا يشعرون بأنهم جزائريون، بل كانوا متشبعين بالشعور الديني لا غير، أي كانوا يشعرون بأنهم من ملة محمد(ص) وكفى⁵، وهذا الإحساس الواقعي، الذي تركه العثمانيون بعد رحيلهم، ألزمهم قرناً من الهيمنة الاستعمارية كي يبلغوا إلى صحوه الضمير والشعور بالوطن⁶.

وقد فسّر مصطفى الأشرف⁷ هذه الحالة قائلا: «نحن نعتقد أنه توجد درجات مختلفة ومتفاوتة في العواطف كما توجد لدى أمة من الأمم درجات مختلفة ومتفاوتة في الوعي السياسي، ولكن هذا التفاوت ليس ملحوظا إلا في مرحلة الانطلاق، أما في نهاية المطاف فإن العواطف التي تنهض بالأمم وتدفعها لمواصلة الكفاح، هي واحدة مشتركة». ويبدو أن القائل يكون قد استقى هذا التفسير من مراحل تاريخ الجزائر المستعمرة، وهو أقرب إلى الصواب غير أننا نؤكد على ضعف الوعي السياسي لدى سكان الجزائر عند خروج العثمانيين من الجزائر دون رجعة، ولذلك كان هناك فراغ سياسي رهيب.

والحق أن الفراغ السياسي وانعدام الشعور الوطني وكذا انعدام وجود إدارات عسكرية وسياسية كانت في نظرنا من أهم الأسباب التي حالت دون قيام جبهة موحدة لردع الخطر الخارجي الذي تمكن من احتلال العاصمة التي لم تحدث بها مقاومة تعتمد على شعلة روحية أو وطنية، بعد أربع سنوات من الاحتلال تمكنت فرنسا من أن تضع سكان الجزائر تحت سيادتها وأصبحوا رعايا فرنسيين (des sujets français) أي مواطنين فرنسيين من الدرجة الثانية، بمقتضى مرسوم 1834/07/22 تاريخ الإلحاق. كما أطلقت عليهم فرنسا تسمية «الأهالي» (Indigènes) ويعدّ ذلك تناقضا صارخا حتى مع القانون الفرنسي العام المستوحى من مختلف المعاملات السياسية، لأنه من المفروض والبدیهي أن قرار الإلحاق يكسب الجزائريين صفة المواطن الفرنسي إذ يعدّ حدثا سياسيا هاما، تنتج عنه نتيجة سياسية وحيوية⁸ تتمثل في ازدواجية قومية سكان البلد الملحق (الجزائر).

رغم أن المادة 109 الدستورية من قانون 04 نوفمبر 1848 في عهد الجمهورية الفرنسية الثانية نصت على أن: «التراب الجزائري والمستعمرات هي أقاليم فرنسية»⁹، ورغم أن فرنسا وضعت الجزائر تحت سيادتها الكاملة، إلا أنها لم تضع

لسكانها ولا تشريع يمنحهم صفة المواطن الفرنسي، عدا الباب الضيق الذي فتحه أمامهم من خلال قانون السناتوس كونسولت (sénat usconsulte) المؤرخ في 14 جويلية 1865 الذي يسمح لهم بالتجنس فرادى بتقديم طلب وإجراءات إدارية معقدة.

نخلص إلى القول أن الجزائريين أصبحوا في ظل الاحتلال الفرنسي في وضع وسيط في التنظيم الاجتماعي يسيرون بقوة القانون المدني، فلم يحتفظوا بقوميتهم السابقة ولا اكتسبوا المواطنة الفرنسية بحقوقها وواجباتها، أي أنهم أصبحوا رعايا فرنسيون لا غير.

3. الأقدام السود رواد القومية الجزائرية:

من المفارقات وعكس ما هو منطقي فإن الجزائريين المسلمين رغم مقاوماتهم الطويلة التي امتدت حتى أواخر القرن 19م عند استكمال الاحتلال ليسوا هم أول من تكلم عن استقلال الجزائر بالمفهوم الوطني الحديث، بل كان الأقدام السود أو المعمرون من ذوي الأصول الأوروبية أول من صاح في الجزائر بجزائريتهم ونادوا باستقلالهم عن الوطن الأم فرنسا. ففي عام 1895 أثار بالجزائر العاصمة فيليكس ديسوليه (Felix Dessoliers) السياسي "الجزائري" (وهو مولود بالجزائر) شعار «الجزائر الحرة»، وأعطى الانطباع على أنه بيان مقترح يشرح فيه أن: «المستقبل سيكون من نصيب هذا القسم الجزائري» وبطبيعة الحال يقصد قسم الأوروبيين المهاجرين والفرنسيين المولودين بالجزائر. وفيما بين سنوات 1895 إلى 1901 تأكد بوضوح حلم جزائر لاتينية مستقلة عن فرنسا بسبب النغمة المعادية للسامية التي ستجند أغلبية الأوروبيين ضد اليهود، وقد نادى زعماء «الثورة الجزائرية» بشعار «الجزائر للجزائريين»¹⁰ ويقصدون بالجزائريين هم أنفسهم الأوروبيين. أما على المستوى الاجتماعي فقد تأكد هذا التوجه السياسي من خلال شخصية كاكايوس

(Cagayous) الممثل البطل بالمرشح مع الجمهور العاصمي - وهم من الأوروبيين طبعا وجنسياتهم فرنسية - عندما طرح سؤاله مخاطبا إياه (الجمهور): هل أنتم فرنسيون؟ فأجاب الجمهور: لا بل نحن جزائريون. (Non nous somme des Algériens)

وكي توقف فرنسا هذا التوجه السياسي الانفصالي، تحتم عليها أن تمنح الجزائر استقلالها المالي ومجلسا منتخبا يتصرف كيفما شاء في مصير الجزائر المستعمرة وقد تجسد ذلك في «النيابات المالية» (Délégations financières).

لم يكن الظهور المؤقت لمفهوم الشعور الوطني المعروف بـ "الجزيريانيست" (L'Algérieniste) (ذوي المذهب الجزائري)، سندا يخدم الجزائريين المسلمين خاصة وأن أعداء اليهود من الأوروبيين الذين تشبعوا بهذا المفهوم حاولوا استخدامهم باستغلال الأحداث مثل حادثة ألفريد دريفوس (Alfred Dreyfus)¹¹ لتحقيق حلمهم ما بين سنوات 1896-1900م، المتمثل في تحقيق وطن مستقل عن الوطن الأم فرنسا.

4. الإرهاصات الأولى للقومية الجزائرية:

إلى هذا التاريخ، أي إلى حدود بداية القرن العشرين، كان المسلمون الجزائريون يشعرون فقط بانتمائهم إلى الأمة المحمدية، وكانت «وطنيتهم» - بمعنى من المعاني - تتغذى من إيمانهم بالقضاء والقدر، أو كما عبّر عن ذلك شارل روبير أجيرون¹²: «كانوا يحلمون بعودة المهدي المنتظر واليوم الذي سيخوضون فيه الجهاد لإخراج النصارى من أرض أجدادهم»، ونفهم من هذا القول أنهم ما زالوا على ما كانوا عليه من شعور من زمان بعيد عن الفكر الحديث خاصة ما تعلق منه بمفهوم الفرد والجماعة وعلاقتهم بالسيادة، ونقصد بذلك علاقة المواطن بالأمة وعلاقتهم الاثنين بالدولة الحديثة ذات المؤسسات.

ومع بداية القرن 20م بدأ «الشبان الجزائريون» يطالبون بالحريات الأساسية والمساواة مع فرنسيي الجزائر، وكانوا بالخصوص يناضلون من أجل إخراج الأهالي من سباتهم العميق بإظهار محاسن الحضارة الغربية للعامة الجاهلة. وعلى الرغم من كونهم إندماجيون إلا أن جرائدهم كانت تحمل أسماء مثل "الهلال" و"الإسلام" و"الراشدي" كما كانت جرائدهم تورد عبارات مثل "الجزائر العربية" و"الشعب العربي" وكانت أيضا تحث الناس على التضامن الإسلامي، وتعبّر عن تمنياتها كي تتحالف فرنسا مع الإمبراطورية العثمانية، وأن يطبق في الجزائر «الاندماج الفرنسي-العربي». والحق أن مثل هذا النشاط لهؤلاء الاندماجيين الجزائريين كان كافيا لاستنفار فرنسيو الجزائر وإيداء قلقهم إزاء مطالب هؤلاء الشبان، فوصفوه بكثير من النعوت مثل «القوميون» و«الإسلاميون».

ومن بين هؤلاء الشبان -جميعهم خدم فرنسا خاصة أثناء الحرب العالمية الأولى- كان الأمير خالد يأمل في أن يلعب دورا عظيما باستعمال مبدأ «حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها» فقدّم نداء خفية في شهر مايو 1919م للرئيس ولسون، وما يهتمنا منه في هذا المقام ما يأتي: «نطالب بإرسال مندوبين تختارونهم بكل حرية تحت إشراف عصبة الأمم كي يقرروا مصير مستقبلنا»¹³ وكان يتكلم نيابة عن سكان الجزائر المسلمين، ونستشف من هذا المطلب أن الأمير خالد يعد بحق أول جزائري نادى بالقومية الجزائرية، حتى وإن كانت معركته السياسية لا تعدو أكثر من حمل احتياجات الشبان الجزائريين ضد النظام الاستعماري¹⁴.

5. ترسيخ الحركة الوطنية لفكرة الأمة الجزائرية:

يقول د/عبد الله شريط: «إن المعركة السياسية التي جرت بين القوات الوطنية وقوات الاستعمار لم تكن فقط معركة سجون وانتخابات وقمع واضطرابات، ولكنها بالخصوص كانت معركة مفاهيم تتصارع فيها الأفكار»¹⁵. فإذا نظرنا إلى معركة

الأمير خالد بعد أن طلق حركة الشبان الجزائريين الداعين للاندماج والانصهار في الحضارة الغربية مع نهاية الحرب العالمية الأولى، قد بدأ يدعو إلى تنظيم الشعب الجزائري وتوحيده، وأنشأ جمعية «الأخوة الجزائرية» التي كان لها برنامجا طموحا، خاصة منه ما تعلق بإعطاء صفة المواطنة الفرنسية للجزائريين المسلمين مع احترام قانون الأحوال الشخصية، وذهب الأمير خالد، بعد أن سدت أمامه جميع المنافذ في أواخر حياته السياسية، إلى تصور أن الكفاح الثوري هو الطريق الوحيد الممكن لتحقيق الوطنية في كنف الإسلام.

وبسبب وجود الآلاف من الجزائريين المهاجرين من جهة، ووجود حركة قومية عربية نشطة على رأسها شكيب أرسلان، ثم ميلاد نجم شمال إفريقيا بفرنسا من جهة ثانية، ومن جهة ثالثة بدأ المخاض العسير للنضال من أجل الاستقلال، فبدأت الوطنية الجزائرية تستوحي نماذجها من النماذج المقترحة من طرف زعماء القومية العربية. وقد نهل نجم شمال إفريقيا من هذا المعين الإيديولوجي الجوهري الذي أضيف إلى موارد التأثير البروليتاري¹⁶ الذي يمتلكه.

بمجرد إفصاح مناضلي النجم عن رغبتهم في الاستقلال لأول مرة في جمعية عامة بتاريخ 30 جانفي 1927، اختلف معهم الشيوعيون، ثم جاءت القطيعة في نوفمبر من نفس السنة عندما صادقت الجمعية العامة على مطلب الاستقلال، ومن بين أهم المطالب التي أقرها مؤتمر حزب النجم في مايو 1933، التصويت على مطلب برلمان وطني جزائري منتخب بالتصويت العام، وجلاء الجيش الأجنبي وتعويضه بجيش وطني.

وبما أن الاستقلال كان من المطالب الجوهرية للحزب، فقد كان لزاما على نجم شمال إفريقيا أن يفكر في رمز السيادة الوطنية المتمثل في العلم الجزائري، وعليه توصل بعد ذلك لاختيار الألوان الثلاثة المعروفة منذ سنة 1934.

عندما تأسس حزب الشعب الجزائري على أنقاض حزب النجم، حاول مصالي الحاج شرح طبيعة الوطنية الجزائرية فقال¹⁷: «يقطن الجزائر المسلمة شعب له لغته ودينه وماضيه المجيد، وله مفكروه وأبطاله وتقاليده الإسلامية ومازلنا اليوم-رغم الاستعمار- أشد ما نكون تعلقا بهذا الماضي، عاملين على هديه في سبيل تحضير مستقبل جدير به، فالاستقلال ليس أمرا طبيعيا مسجلا في قلب كل مسلم وحسب، بل هو حق اعترفت به فرنسا عند نزولها بسيدي فرج في 05 جويلية 1830» وأضاف «إن وطنيتنا ليست إمبريالية ولا متعصبة أو عنصرية، إنها وطنية تحررية شبيهة بوطنية ثوار 1789». يبدو أن مصالي قد أصاب كثيرا التذكير بمعاهدة الاستسلام، لأنها تدخل في الأعراف والقوانين الدولية، أي أنه أزاح الزعم الذي كان يدعيه الفرنسيون على أن الجزائريين لم يكونوا إلا مجرد قبائل متنافرة، كما أزاح عنها كل عنصرية وعنجهية عندما شبهها بالوطنية الفرنسية الحقيقية.

أما بالنسبة للطرف الإصلاحي فيكفي أن نذكر ما تفتقت به عبقرية بن باديس عندما أزال كل لبس وغموض في قوله¹⁸: «إن الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصبح فرنسا ولا تستطيع أن تصبح فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وأخلاقها وفي عنبرها وفي دينها، لا تريد أي اندماج ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة». ولأجل استمرارية الأمة ربط بن باديس شرف المسئول- أي مسئول- بشرف الوطن فقال: «لا شرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه ولا سمعة لمن لا سمعة لقومه»¹⁹. وقد كان لهذا التعريف أثره الطيب عند الوطنيين الجزائريين، بينما حزّ كثيرا في نفوس الاندماجين والمتجنسين، فكان منعرجا حاسما في زعزعة قناعات مجموعة من المثقفين المنبهرين بالثقافة الفرنسية وعلى رأسهم فرحات عباس الذي بدأ في التحول من قناعة "أنا فرنسا" إلى قناعة "لا

إدماجا ولا سيدا ولا انفصالا! بل غايتنا إبراز شعب فتى يتكون تكويننا ديمقراطيا واجتماعيا²⁰، أما المتجنسون أمثال "رافع كشريد" فقد أقاموا الدنيا ولم يقعدوها، فكان هجومهم عنيفا على ابن باديس إلى حد السب والشتم، حيث كتب هذا الأخير مقالا يرد فيه على ابن باديس واصفا إياه بـ «الرجل الحمار»²¹، وقد يستشف المرء من هذا المقال مدى خيبة الأمل عند صاحبه، والحق أن المنتبغ لحياة هؤلاء قد يلاحظ انكسارا في خيالاتهم وحياتهم السياسية منذئذ إذ بدأت نشاطاتهم تفقد حيويتها، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد الحرب التحريرية، حيث تمزقوا معنويا ورحلوا برحيل فرنسا.

وقد تطورت الحركة الوطنية من خلال نضالها الميرير طيلة ربع قرن من الزمن، وقبل انطلاق الثورة التحريرية انعقد المؤتمر الثاني لحركة انتصار الحريات الديمقراطية في شهر أفريل من عام 1953 وعالج مفهوم الدولة التي تجسد بمؤسساتها سيادة الأمة على وطنها بالمفهوم الحديث، وكان ذلك لأول مرة بصفة رسمية وواضحة²² ويتجلى ذلك في المبادئ الخمسة التي أظهرها في لائحته العامة وهي:

الديمقراطية وتتمثل في: من الشعب وإلى الشعب باعتباره مصدر السيادة.

الجمهورية وتتمثل في: نظام للحكم.

ضمان الرفاهية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية.

احترام المعتقدات الدينية طبقا لروح الإسلام وتقاليده:

ثقافة وطنية مرتبطة بالثقافة العربية الإسلامية.

والحق أنه مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين، قد بلغ مفهوم الأمة عند الجزائريين شأنا عظيما، ولم يبق إلا تجسيده وتحقيقه على أرض الواقع بتحقيق الاستقلال.

إدماجاً ولا سيّداً ولا انفصالاً! بل غايتنا إبراز شعب فتى يتكون تكويناً ديمقراطياً واجتماعياً²⁰، أما المتجنسون أمثال "رافع كشريد" فقد أقاموا الدنيا ولم يقعدوها، فكان هجومهم عنيفاً على ابن باديس إلى حد السب والشتم، حيث كتب هذا الأخير مقالا يرد فيه على ابن باديس واصفا إياه بـ «الرجل الحمار»²¹، وقد يستشف المرء من هذا المقال مدى خيبة الأمل عند صاحبه، والحق أن المتتبع لحياة هؤلاء قد يلاحظ انكساراً في خيالاتهم وحياتهم السياسية منذئذ إذ بدأت نشاطاتهم تفقد حيويتها، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد الحرب التحريرية، حيث تمزقوا معنوياً ورحلوا برحيل فرنسا.

وقد تطورت الحركة الوطنية من خلال نضالها المبرير طيلة ربع قرن من الزمن، وقبل انطلاق الثورة التحريرية انعقد المؤتمر الثاني لحركة انتصار الحريات الديمقراطية في شهر أفريل من عام 1953 وعالج مفهوم الدولة التي تجسد بمؤسساتها سيادة الأمة على وطنها بالمفهوم الحديث، وكان ذلك لأول مرة بصفة رسمية وواضحة²² ويتجلى ذلك في المبادئ الخمسة التي أظهرها في لائحته العامة وهي:

الديمقراطية وتتمثل في: من الشعب وإلى الشعب باعتباره مصدر السيادة.

الجمهورية وتتمثل في: نظام للحكم.

ضمان الرفاهية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية.

احترام المعتقدات الدينية طبقاً لروح الإسلام وتقاليدته:

ثقافة وطنية مرتبطة بالثقافة العربية الإسلامية.

والحق أنه مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين، قد بلغ مفهوم الأمة عند الجزائريين شأنًا عظيمًا، ولم يبق إلا تجسيده وتحقيقه على أرض الواقع بتحقيق الاستقلال.

6. مفهوم الأمة الجزائرية تاج للثورة التحريرية:

كانت ثورة التحرير عند انطلاقها في أول نوفمبر 54 تستند إلى أرضية إيديولوجية متميزة، مهدت لها ووضعت في متناولها الأدبيات والشعارات التي صنعتها الحركة الوطنية، وساهمت فيها الحركة الإصلاحية، ويمكن إيجازها فيما يلي:

الانطلاق من مجال ثقافي حضاري واحد وهو المجال الثقافي العربي الإسلامي، هذا المجال الذي كان وما زال يشكل حقيقة الشعب الجزائري قبل وأثناء الاحتلال.

اعتبار الجزائر وطنا لشعب جزائري عربي مسلم (بالمفهوم الثقافي)، لم تزده سياسة الاستعمار إلا تمسكا بعروبته وإسلامه.

اعتبار وجود الأمة الجزائرية مسألة بدئية، وأكبر برهان على ذلك أنها قامت تطالب بحقوقها الوطنية والسياسية كأمة، وأهمها حق تقرير المصير والاستقلال.

وإذا كانت القطيعة التي أحدثتها جبهة التحرير الوطني مع الحركة الوطنية المتمثلة في حزب النجم وحزب الشعب وحزب حركة الانتصار، فإنها كانت قطيعة في أسلوب العمل والنظام لأجل تحرير المناضلين من مركزية الحزب وتأثير "هالة الزعيم"، ودفعهم في حركة ثورية جديدة تكافح في سبيل تحرير الجزائر بدلا من النضال السياسي فقط الذي أثبت عقمه في محاربة الوجود الاستعماري.

أما الاستمرارية لجبهة التحرير الوطني مع الحركة الوطنية فتتمثل في استيلائها - بفضل مبادرة الفاتح نوفمبر وبيانها - على التراث الإيديولوجي والسياسي للحركة الوطنية وتهيئة الأجواء لعملية التحرير الشاملة²³، ولقد فسّر هذه المفارقة المتمثلة في تحدي جبهة التحرير الوطني للاستعمار ومواصلة الكفاح، رغم قلة العدة والعدد وحداثة النشأة، أحد المؤرخين الفرنسيين قائلا²⁴: «تبدو حركة أول نوفمبر حركة انتحارية في الظاهر، ولكن الانتشار الواسع والراسخ للوطنية الجزائرية فسّر

نجاحها». ولعلّ ما يؤيد هذا القول استمرار الثورة وتصعيدها للكفاح مع مرور الأيام بسبب احتضان الشعب الجزائري لها.

ولنؤكد على استمرارية الزخم الإيديولوجي للحركة الوطنية وتكريسه من قبل جبهة التحرير الوطني نقطف بعض المقاطع من بيان أول نوفمبر ومنها:

« فنحن نعتبر قبل كل شيء أن الحركة الوطنية-بعد مراحل من الكفاح- قد أدركت مرحلة التحقيق النهائية. »

«إننا نعتبر الشعب الجزائري في أوضاعه الداخلية متحد حول قضية الاستقلال. »

«إن الوقت قد حان لإخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي أوقعنا فيه صراع الأشخاص لدفعها إلى المعركة الثورية الحقيقية.»

«نحن مستقلون عن المصاليين والمركزيين.»

واضح أن المقطع الأخير يعد تجاوزا للفصائل المذكورة واستمرارا لحزب الشعب. ومن جهة أخرى فإن أهداف جبهة التحرير التي أعلنت عنها من خلال البيان هي: إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية.

احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني.²⁵

كما كان في مفهوم جبهة التحرير أن ثورتها لم تكن حربا دينية، بل كانت بمفهوم الكفاح الوطني من أجل إقامة دولة جزائرية كما أكدته وثيقة الصومام، وهنا تجدر الإشارة إلى أن القادة في مؤتمر الصومام قد أكدوا على أن وقف القتال لن يكون إلى بتوفر أربع حالات، وما يهمنا منها في هذا المجال:

الاعتراف بالشعب الجزائري شعبا واحدا لا يتجزأ.

الاعتراف باستقلال الجزائر وسيادتها في جميع الميادين.²⁶

كانت جبهة التحرير الوطني من خلال إنشاء الحكومة المؤقتة لا تهدف إلى تسوية مشاكل سياسية وإدارية فحسب، بل كانت تهدف إلى بعث الدولة الجزائرية وهو ما عبّرت عنه الحكومة المؤقتة في الرسالة التي وجهتها لجمال عبد الناصر غداة تشكيلها على أن الهدف الأسمى من وجودها يعد رداً على سياسة الإدماج التام للحكومة الاستعمارية الفرنسية²⁷، وبما أن بيان أول نوفمبر قد أكد على الرغبة في السلم، إن توفرت النية لدى السلطات الفرنسية واعترفت نهائياً بـ :

الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية.

الاعتراف بالسيادة الجزائرية وحدة لا تتجزأ.

لذلك لما لاح في الأفق انتصار الثورة كانت جبهة التحرير مستعدة لخوض معركة أخرى وهي معركة المفاوضات المراتونية بكل حكمة وثبات، وكان من بين أهم الشروط التي وضعها الوفد الجزائري يوم 15 مارس 1961 ما يأتي:

• الاستقلال التام.

• السيادة التامة للجزائر.

• وحدة التراب الوطني بما في ذلك الصحراء.

• وحدة الأمة الجزائرية وعدم وجود أية تجزئة.

كلن الاتفاق النهائي الذي تم يوم 18 مارس 1962 بـ "إيفيان" السويسرية قد نصّ فيما يتعلق بتكريس الثورة لمفهوم الأمة الجزائرية على ما يأتي:

يختار الجزائريون بين الاستقلال التام للدولة الجزائرية أو الاستقلال والتعاون بين الجزائر وفرنسا.

يحفظ الأوروبيون بجنسيتهم ويتعيّن عليهم الاختيار بين الجنسية الجزائرية والفرنسية خلال السنوات الثلاث القادمة.

رغم كل شيء فإن الأمة الجزائرية قد استعادت سيادتها ولم يصوت لصالحها إلا 16534 ناخب، بينما صوّت لصالح هذه الأمة المجيدة 5951581 ناخب حسب الإحصائيات الرسمية.²⁸

يستنتج المرء - مما سبق - إلى أن الجزائريين لم يكونوا أصحاب سيادة منذ أمد بعيد وتأكد ذلك عندما دخل الفرنسيون العاصمة، حيث لم يجدوا مقاومة عسكرية عنيفة من قبل الجزائريين بعد رحيل العثمانيين، كما انتفتت المقاومة السياسية -إذا ما استثنينا حمدان بن عثمان خوجة (وهو غير جزائري الأصل) لأنه لم يكن من بينهم فقهاء سياسيين بالمفهوم الحديث، ونفهم من ذلك أنهم كانوا معزولين عن السياسة محليا وخارجيا.

النتيجة الأولى ترتبت عنها نتيجة ثانية تمثلت في تأخر ميلاد مفهوم الأمة الجزائرية بقرن من الزمن خاصة تحت ظل الاحتلال، وقد كلف ذلك مخاضا عسيرا. كما يخلص المتمعن في تاريخ الجزائر الحديث أن الثمن الباهظ الذي قدمته أجيالا من الجزائريين قد تمثل في تحقيق الوحدة والاستقلال التامين للأمة الجزائرية الحديثة.

المراجع:

عبد الله شريط: مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص _ ص، 47_49.

Gantois René : L'accession des indigènes Algériens à la qualité de citoyen Français, Imprimerie, La Tipo-Lito, 1928. P.28.

Lazard Claude : L'accession des indigènes Algériens à la citoyenneté française, Librairie technique et économique, Paris 5^{ème}, 1938, P.6.

ساطع أبو خلدون الحصري : آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، ط.2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985، ص، 9-11.

يستثنى من الجزائريين حمدان بن عثمان خوجة كونه صاحب ثقافة عالية في مجالات عديدة، كما أن كثرة حله وترحاله مكنه من الاطلاع الواسع على أحوال الأمم، خاصة الأوروبية منها، بتردده على النوادي الفكرية والاحتكاك بالأوساط السياسية، فكان يعي جيدا المفاهيم السياسية الحديثة كالقومية والوطنية وغيرها، غير أنه لم ينشر هذه المعارف في أوساط الشعب الجزائري، أنظر: كتابه المرأة، تعريب، محمد العربي الزبيري.

Agéron(C-R): L'Algérie des Français, société d'éditions scientifiques, octobre, 1993, p. 185.

الجزائر، الأمة والمجتمع، ت: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص، 7-8

Pierre Aimé: Les indigènes Algériens (leurs état civil et leurs conditions juridique), librairie du Dilos, Alger, 1862, p. 7.

Gantois René: L'accession des indigènes Algériens à la qualité de citoyen Français, imprimerie La Tipo-Litho, 1928, p. 23.

Agéron (C.R): Les Algériens Musulmans et la France (1871-1919), t.1, edit. P.U.F. Paris. 1968. p,p; 596,604.

ألفريد دريفوس: مواطن فرنسي من أصل يهودي اتهم بالخيانة والجاسوسية لصالح ألمانيا على حساب وطنه وتطورت الأمور إلى أن أصبحت قضية قضائية سياسية، فقسمت الرأي العام الفرنسي ما بين سنوات 1898-1906 إلى يسار ويمين وهذا الأخير التف حول رابطة الوطن الفرنسي وتضاعفت الحملة لمعاداة السامية، وانتقل هذا العداء إلى الجزائر فهاجم الفرنسيون اليهود وأشركوا المسلمين في هذه الأحداث. لمزيد من المعلومات، أنظر:

Laurent Rollet: Autour de l'affaire Drefus. Henri Poincaré et l'action politique, in revue historique, N° 603 juil-sept P.U.F. Paris.1997.

Ageron (C.R):l'Algerie des Français, op.cit, p. 187.

بسام العسلي: الأمير خالد الهاشمي الجزائري، دار النفائس، ط.1، بيروت، 1982، ص.112.

Gaures, op.cit, p. 188.

مرجع سابق، ص.122.

الجلالي صاري ومحفوظ قداش: المقاومة السياسية 1900-1954، ت: عبد القادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص.60.
مذكرات مصالي، نقلا عن محمد عباس: الإندماجيون الجدد، مطبعة دحلب، الجزائر، 1993، ص. 23.

Rachid Kalafat: l'Algérie est bien Française, in Echo de la presse Musulmane, 2^{ème} année N° 24, 02Mai 1936.

عمار طالبي: بن باديس حياته وآثاره، ج3، ص.278.

فرحات عباس: حرب الجزائر وثورتها (ليل الاستعمار)، ت. أبو كر رحال، مطبعة فضالة، المغرب، ص.195.

Rafaa Kechrid: l'homme à l'âne, in l'Echo de la presse Musulmane, 2^{année}, N°22, 16 avril 1936.

محمد عباس: مرجع سابق، ص. 33.

نفس المرجع، ص. 43.

Guy Pervillé: Les étudiants Algériens 1880-1962, edit, CNRS, France, 1984, p.263.

وزارة المجاهدين: نداء أول نوفمبر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث، سنة 1998، ص، 06-08.

نصوص أساسية لجبهة التحرير الوطني، 1954-1962، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1976، ص. 17.

ازغدي محمد لحسن: مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائري (1962-56)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص. 1971.

عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1997، ص. 541.